

Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences



جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

رؤية الجاحظ في الدولة الأموية

سليم بن محمد بن سعيد الهنائي

وزارة التربية والتعليم
سلطنة عمان
slim996@hotmail.com

تاريخ الاستلام: ٢٠١٥/٤/٥

تاريخ القبول: ٢٠١٥/٥/٢٥

رؤية الجاحظ في الدولة الأموية

سليم بن محمد بن سعيد الهنائي

المخلص:

تسعى الدراسة إلى إبراز الدور الذي قام به الجاحظ في عرض الروايات التاريخية عن الأمويين، هذه الروايات انفرد بها الجاحظ عن باقي كتب التاريخ والأدب الأخرى، كما تستكشف الدراسة العوامل التي ساهمت في دخول الدولة الأموية في الصراعات خاصة في السنوات الأخيرة من دولة الأمويين. وتتطرق الدراسة إلى إبراز دور الجاحظ في الكتابة عن دولة بني أمية وكيف كان لقربه من الخلافة العباسية انعكاس على كتاباته نحو الدولة الأموية. وتستشرف الدراسة أيضا المنهج الذي كان يتبعه أغلب كتاب التاريخ وموقف الجاحظ من العديد من الكتابات والروايات عندما يبسطها ويحللها وينقدها. وتعتمد الدراسة على المنهج التاريخي والمنهج الوصفي التحليلي في عرض ومناقشة النتائج من خلال تحليل الدراسات السابقة، وسيكون البحث إضافة علمية بسبب قلة البحوث التي تناولت تاريخ الدولة الأموية من خلال كتب الأدب.

الكلمات المفتاحية: الجاحظ، الأمويون، الرواية التاريخية.

Al- jahiz Vision in Umayyad era

Sulaiyam Mohammed Al hinai

Abstract:

The study seeks to highlight the role played by the Al- jahiz in the presentation of historical novels about the Umayyads, these novels by Al- jahiz himself from the rest of history, literature and other books, the study also explores the factors that contributed to the entry of the Umayyad dynasty in particular conflicts in the last years of the Umayyad state. The study addresses to highlight the role of Al- jahiz in writing the Umayyad state and how it was to the closeness of the Abbasid Caliphate reflection on his writings about the Umayyad dynasty. The study also explores the approach that was followed by most of the history book and Al- jahiz position of many of the writings and novels when streamlines and analyzes and be critic. The study is based on the historical method and descriptive analytical approach in the presentation and discussion of the results through analysis of previous studies, and research will be added due to the lack of scientific research that dealt with the history of the Umayyad dynasty through literature.

Keywords: Al- jahiz , Umayyad , Historical novel.

مقدمة

جزء محدد من مؤلفات الجاحظ، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن مؤلفات الجاحظ تكاد تأخذ نسيجاً واحداً؛ فلا توجد دراسة تأخذ المنحى التاريخي الذي يعتمد على استخراج المادة التاريخية وتناولها وتحليلها، ودراستنا في الجانب التاريخي تعتمد على مؤلفات الجاحظ الذي يجب أن تتم دراسته على أساس دراسة ما أنتجه الجاحظ كلاً لا يجزأ.

لكن على الرغم من ذلك توجد بعض الدراسات التي تناولت الجاحظ من منظور تاريخي، ومنها دراسة شارل بلا (الجاحظ في البصرة ١٩٨٥)، التي تناول فيها البصرة في القرنين الأول والثاني الهجريين، وعلى رغم أن الدراسة معنونة بالجاحظ، إلا أنه لم ينل منها سوى الجزء الخاص بحياته، أما عدا ذلك فالدراسة تناولت البصرة والمجتمع البصري، وأخيراً يأتي بخلاصة يحاول فيها أن يبين علاقة هذه الدراسات بشخصية الجاحظ، وهي علاقة على كل حال، تنقطع ببعض الاستطراد أحياناً وبالخروج عن النطاق الذي يحيط بالجاحظ أحياناً.

أما دراسة النجم (الجاحظ والحاضرة العباسية ١٩٦٥) فتناولت الباحثة فيها الجاحظ وعلاقته بالدولة العباسية. إن دراسة وديعة مهمة خاصة في المجال الاجتماعي؛ إذ ناقشت الباحثة من خلال مؤلفات الجاحظ المنهج المتبع في الكتابة عنده، وذكرت ما معناه أنه لا يورد رأياً شخصياً له في مؤلفاته، لكن الحقيقة أنه يورد ذلك بطريقة مبهمّة، ويمكن أن يستشفه القارئ من خلال عباراته؛ إذ يبدو للقارئ أن الجاحظ محايد في رأيه، لكنه في الحقيقة ليس كذلك. ويمكن إثبات ذلك في العديد من مؤلفات ومواقف الجاحظ التي سقناها.

كذلك فإن دراسة هياجنة (الجاحظ مؤرخاً ١٩٩٦) قامت بتناول حياة ومنهج الجاحظ بمنهج علمي نقدي، كما قامت بجمع الروايات التي ذكرها الجاحظ وقسمتها حسب المدة التاريخية. وأهمية هذا الجمع تكمن في أن الروايات مصنفة ومرتبطة زمنياً، حسب الأحداث وحسب الشخصيات. لكن الباحثة لم تنقد روايات الجاحظ ولم تعلق عليها.

كذلك هناك دراسة حميل (الجاحظ ومجتمع عصره) التي تناول فيها ما يمثله الجاحظ في كتاباته لمجتمع عصره. وقد اعتمد المؤلف على كتاب الحيوان أكثر مما اعتمد على غيره، كالبخلاء أو البيان والتبيين، كما اعتمد على كتب أخرى ألمانية وإنجليزية وفرنسية تناولت الجاحظ، وإن كان هذا الاعتماد الأخير لا يبدو جلياً في كتابه و التعليقات حوله، ولكن الكتاب له وزنه الخاص، وهو مما اعتمد عليه شارل بيلا، فأحال عليه في عدة مناسبات.

منهجية الدراسة

تعتمد الدراسة على المنهج التاريخي الذي يقوم على عرض روايات الجاحظ وتحليلها، وفي ضوء هذا المنهج تقوم الدراسة على استعراض ما احتوت عليه مؤلفات الجاحظ في المدة موضوع الدراسة والمقارنة فيما بينها وبين كتب التاريخ الأخرى بأسلوب علمي نقدي، كما تعتمد الدراسة على منهج تحليل المضمون الذي يقوم بعرض نصوص مختارة من مؤلفات الجاحظ ومن ثم تحليل

مهدت الظروف بعد موقعة صفين أن يتولى معاوية الخلافة، وبايعه الحسن بن علي. إن الجاحظ كما سنرى، كان موضوعياً إلى حد قليل في تناول الدولة الأموية وخلفاءها بسبب قرابه من الخلافة العباسية ورجالها، برغم أنه يقرر صفة الحياد التي ينبغي للكاتب أن يكون عليها، قائلاً: (اعلم أن واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلاً، ولأهل النظر مألُفاً، حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثل الذي يبلغ لنفسه، حتى لو لم يقرأ القارئ من كتابه إلا مقالة خصمه تخيل له أنه الذي اجتباه لنفسه، واختاره لدينه) (العثمانية، ص ٤٥٢)؛ فالجاحظ يعلم أن كتابة التاريخ تحتاج إلى الصدق والحياد وعدم الميل إلى أي طرف على حساب الأطراف الأخرى ومع ذلك حاد وبعد عن الصواب.

إن الجاحظ الذي دافع عن الحياد في كتاباته لم يعتمد هذا المنهج بل دافع عن وجهة النظر التي يعتقد بها؛ فقد دافع عن سياسية الخلفاء العباسيين، كما دافع عن نهج المعتزلة الفكري والسياسي، ويظهر أثر الدوافع السياسية والاعتبارات الشخصية والنظرة العقائدية وراء العديد من الرسائل التي ألفها (الجاحظ مؤرخاً: ٤١٠).

إن الجاحظ الذي يُظهر في بعض المواقف معارضته للدولة الأموية، يعارض كل ما يمت بصله لهم؛ فهو مدفوع بولائه للخليفة العباسي الذي يجب عليه أن يتكلم بلسانه ويأتمر بأمره. من ذلك موقفه من عمرو بن العاص الذي كان العامل الأساسي في وصول معاوية للخلافة: (قام عمرو بن العاص بالموسم، فأطرى معاوية، وبني أمية، وتناول بني هاشم، ثم ذكر مشاهدته بصفين) (البيان والتبيين، ج ٢: ٢٠٦).

أهمية الدراسة

تكمن أهمية الدراسة في:

- ١- إبراز موقف الجاحظ المعتزلي الذي عاش في كنف الدولة العباسية، من الدولة الأموية التي زالت على يد بني العباس، والتي ما زال العباسيون ينظرون إليها وإلى رجالاتها وإرثها بنظرة عدائية.
- ٢- عرض العوامل التي جعلت الجاحظ يكتب عن الدولة الأموية وعن الكثير من الشخصيات في الدولة الأموية، على رغم أنه يعيش في كنف الدولة العباسية وله فيها حظوة.
- ٣- مناقشة المنهجية التي اتبعها الجاحظ في الكتابة عن الدولة الأموية: هل سار على نفس المنهج، أم كان له منهج خاص نادى به وسار عليه، مثل الحيادية والتثبوت؟
- ٤- تحليل دور الجاحظ في التعريف بالكثير من الأحداث زمن الدولة الأموية، وكيف كان لكتاباته ورواياته دور في تغيير النظرة السائدة عن كثير من الأحداث زمن الدولة الأموية.

الدراسات السابقة

يشير أدب الموضوع إلى وجود عدد من الدراسات التي تناولت الجاحظ في الجانب الأدبي والنقدي، أما الدراسات التي تتناوله من زاوية تاريخية نقدية فقليلة، وتقتصر في هذا الجانب على

واستعراض العوامل التي ساهمت في ظهور مثل تلك الأحداث على أرض الواقع.

مدخل: الأمويون (٤١/ ١٣٢ هـ - ٦٦١ - ٧٥٠م)

تنسب الدولة الأموية إلى أمية بن عبد شمس، من بني لؤي: أحد جبابرة قريش في الجاهلية، ومن ساداتهم. أدرك الإسلام ولم يسلم (تاريخ الإسلام، ج ٢: ٥١).

يؤكد الجاحظ أن دولة بني أمية دولة عربية أعرابية في حين يجعل دولة بني العباس أعجمية خراسانية (وقد يجب أن نذكر بعض ما انتهى إلينا من كلام خلفائنا من ولد العباس، ولو أن دولتهم أعجمية خراسانية، ودولة بني مروان عربية أعرابية وفي أجناد شامية) (البيان والتبيين، ج ٣: ٢٣٥). وقد فسر الكثير من المؤرخين كلامه على أن دولة بني العباس قامت على سواعد الفرس وهذا مردود عليهم، وتفسير ذلك من خلال رواية الجاحظ (وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقعوا إلى خراسان فلا شك أنهم علوج القرى) (رسالة فخر السودان: ٥٥٥)؛ إذ تؤكد هذه الإشارة سكنى العرب في القرى وامتزاجهم بالسكان المحليين، والجاحظ ينبه أيضاً أن اصطلاح أهل خراسان ليس اصطلاحاً عرقياً بل حضارياً (ولو أن أهل خراسان حفظوا على أنفسهم وقائعهم في أهل الشام، وتدبير ملوكهم، وسياسة كبرائهم، وما جرى في ذلك من فرائد الكلام وشريف المعاني، كان فيما قال المنصور وما فعل في أيامه، وأسس لمن بعده ما يفي بجماعة ملوك بني مروان) (البيان، ج ٣: ٢٢٧) فدولة بني أمية قامت على سواعد عربية.

وصول بني أمية للخلافة

في عام ٤١هـ / ٦٦١م اكتملت عوامل تولي معاوية الخلافة، وتهيأت له جميع أسبابها، فبويع خليفةً للمسلمين (ابن خياط: ٢٠٣)، بعد تنازل الحسن بن علي عن الخلافة، وفي هذا الجانب أفرد الجاحظ رسالة الحكمين يشرح فيها طريقة وصول الأمويين للخلافة، ويؤكد دور الحكمين في إيصال معاوية للخلافة (زعمت أن كتاب القضية في الحكمين يثبت للخوارج حجتهم وأن لفظه يمتنع فيه التوجيه والتورية) (رسالة الحكمين: ٢٧١) وحجة الخوارج أن لا حكم إلا لله. أما أمر التحكيم فكان أمراً صعباً وشاقاً أن يحكم بين طائفتين افتتلا هذا القتال الشديد مدة كبيرة، ووافق علي على الذهاب معهم، حتى يتم التحكيم في هذه القضية الشائكة. والتقى أبو موسى الأشعري، وعمرو بن العاص وبدأ يفكران في كيفية إيجاد حل لهذه المعضلة التي ألت بالمسلمين، فاتفقا ابتداءً على كتابة كتاب مبدئي يضع أسس التحكيم، ولن يكون هو الكتاب النهائي (العسكري، ج ١: ١١٤).

يُفند الجاحظ ويحلل كتاب القضية، من ذلك قوله: (وأنا أقول- حفظك الله- إن كتاب القضية كتاب مدخول) (رسالة الحكمين: ٣٧٢). وسبب أنه مدخول كما يرى الجاحظ: (فإن كان كتاب القضية إنما دعا الحكمين إلى هذا الجنس من النظر، فليس لمعاوية فيه درك، ولا متعلق ولا طمع، وإن كان على غير هذا الوجه فخبرني ما هو وما شكله وأي صورة هو) (رسالة الحكمين: ٣٧٤). فألفاظ كتاب

القضية كما يراها الجاحظ تخلو من الفصاحة والبلاغة ويشيع فيها اللحن مما يدل على أنها من كلام المولدين. والشهود مشكوك في نسبهم ومختلف في أسمائهم، والسنة التي أرادوا الرجوع إليها لم يردنا أن الحكمين تذاكرا بها أبداً (الصريرة، ٢٠١٠: ٨٨).

ويرى الجاحظ أن معاوية به من المنكر ما لم يكن ليخفى على علي بن أبي طالب المعروف بسعة علمه وفطنته، لكن تسويغ ما حدث هو أن (الرجل الذي يحارب ولا يستعمل إلا ما يحل له أقل مذاهب في وجوه الحيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما يحل وما لا يحل) (رسالة فضل هاشم: ٤٣). وما عامل معاوية وعمرو بن العاص علياً قط بمعاملة إلا كان علي أعلم بها منهما، وتفسير كلام الجاحظ أن الكذاب ليس لكذبه غاية، ولا لما يُؤلّد ويصنع نهاية، والصدوق إنما يحدث عن شيء معروف ومعنى محدود.

يعرض الجاحظ الكثير من القضايا التاريخية في موضوع وصول بني أمية للخلافة؛ إذ يبدأ بتمهيد حتى لا يؤخذ عليه النيل من بني أمية (حمودة، ١٩٩٥: ٣٦)، يؤكد فيه أنه لا يريد أن يبخس بني أمية خصالهم وعلى رأسهم معاوية، كونه من كتاب الوحي وتولية عمر إياه أرباع الشام وتثبيت عثمان ذلك له وتزكياته في حسن تدبيره الأمور من العقل والحلم والدهاء، وليؤكد ذلك يورد قدر معاوية في بني أمية (هند بنت عتبة، حين أتتها نعي يزيد بن أبي سفيان، فقال لها بعض المعزين: إنا لنرجو أن يكون معاوية خلفاً من يزيد، فقالت هند: مثل معاوية لا يكون خلفاً من أحد، فوالله لو جمعت العرب من أقطارها ثم رمي به فيها، لخرج من أي أعراضها شاء) (البيان، ج ١: ٦٨). فقد كان شأن معاوية عند بني أمية كبيراً حتى قبل أن يتولى الخلافة؛ إذ إنه أحد كتاب النبي إلى القبائل يدعوهم فيها إلى الإسلام (اليعقوبي: ٢١٢).

ولكن هذه الخصال كما يرى الجاحظ لا تكفي وحدها لاستحقاق الإمامة؛ فالإمامة لا تستوجب إلا بالتقدم في الفضل والسوابق، على أن يكون ذلك الفضل ظاهراً ومشهوراً عند الناس، أو بالشورى، أو بالميراث، أو بالوصية، أو باجتماع القرابة وحرمة العترة، إضافة إلى الخصال الكريمة (رسالة الحكمين: ٢٩).

يشير الجاحظ أن قتلة عثمان مهدوا طريق معاوية للخلافة؛ إذ لولا قتل عثمان لما أوهم الناس بإشتراك علي في قتله وتأليبهم عليه، ولما قال إنه أولى بها لأنه انتدب نفسه للأخذ بنأره: (وليس ينبغي لمعاوية أن يحمد علي ما اتفق له من أسباب القوة وتهاياً له من الملك إلا قتلة عثمان والذين صاحوا يوم قالوا: أخرجوا لنا قتلة عثمان، فقالوا: كلنا قتلة عثمان، لأن عثمان لو لم يقتل لم يمكنه أن يوهم أعمار الأمة وأغثار أهل الشام والقابليين والمفتونين من الأعراب وأشبه العرب، أن علياً هو الذي قتله أو كان السبب له عندهم من جهة الشبهة على أهل الغباء والغفلة أو على من يعميه هو أو يلي جده) (رسالة الحكمين: ٣٤٦). كان أكثر أجناد الخلافة والقواد ورؤساء العشائر من سوء الرأي في عثمان وحسن الرأي في قاتليه على خلاف ذلك؛ ولم يكن للناس جند سواهم فصار علي إن هو أظهر الدلالة الصحيحة على البراءة من قاتليه، خاف أن يفسد عليه عامة أجناده؛ فكان يمسك من ذكره ما أمكنه الإمساك، فإذا اضطره القول قال قولاً يحتمل رضا الفريقين، وهذا ما كان في

الهلكة: (فقد صدق أبو بكر وصدق عمر أن تلك البيعة كانت فلتة وأعجوبة وغريبة؛ إذ سلمت على كل ما وصفنا من أسباب الهلكة، وهي سربخ، وليس دونها ستر ولا رد. فكانت بيعته يمنا وبركة أنقذ الله بها من الهلكة، وجمع بها من الشتات، ورد بها الإسلام في نصابه، بعد تخلعه واضطرابه. فأماتت السخيمة، وأودعت القلوب السلامة، وجمعتها على الألفة وهذه مكرمة وعطية) (العثمانية: ١٧٧). والمقصود بذلك أن بيعة أبي بكر - رضي الله عنه - لا عمر، كانت فلتة أي فجأة لم يرجع فيها إلى عوام المسلمين، وإنما بادر إليها كبراء الصحابة لعلمهم بأحقية أبي بكر بالخلافة، وأنه لا عدل له ولا كفاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مما سبق نلاحظ أن الجاحظ تناول وصول بني أمية للسلطة منذ موقعة صفين؛ إذ يعتبرها كما رأينا هي البداية التي مكنت الأمويين من الوصول للسلطة، ونلاحظ أنه يشير من خلال الأحداث التي ساقها، أن وصول معاوية إلى الحكم كان بقوة السيف والحيلة والغدر، لا باختيار المسلمين، وما كانت مبايعته بالخلافة إلا عن ظهر قلب.

رؤية الجاحظ في الخلفاء الأمويين وسياستهم لم يكتب الجاحظ عن خلفاء بني أمية أخباراً كثيرة إلا ما يمت بالصلة للموضوع الذي يعالجه. ولم يخف الجاحظ إعجابيه بخلفاء بني أمية، على رغم أنه عاش في كنف الدولة العباسية التي تكن العداء لكل ما هو أموي، فالجاحظ الذي كان مقرباً من السلطة كان عليه أن يميل مع هوى السلطة؛ لذا تنازعت العديد من الأهواء السياسية والفكرية (فوزي، ١٩٨٠: ٤١٩).

الجاحظ في كتاباته كان يستشهد ببني أمية ويتناولهم في رواياته وتحليلاته ونقده، مثل استشهاده بمعاوية بن أبي سفيان في رسالة كتمان السر وحفظ اللسان إذ يقول: (...قال معاوية: أتدري من النبيل؟ هو الذي إذا رأته هبته، وإذا غاب عنك اغتبتته. وهي لعمرى سبيل العظماء عند العوام، والملوك عند الرعية، والسادة عند العبيد) (رسالة كتمان السر، ج ١: ١٠٥)؛ فقد تميز معاوية بعقلية فذة وخبرات واسعة؛ إذ إن تقلبه في المناصب العسكرية والولاية المدنية أكسبه خبرة في سياسة البلاد، وأهم ما تميز به قدرته على ضبط النفس عند الغضب.

الجاحظ يشير إلى خصال نادرة تمتع بها معاوية لا توجد إلا عند الملوك، فكان ينقده لما غير وبدل في الخلافة بعد بساطتها في عهد الخلفاء الراشدين، حتى حولها من الخلافة إلى الملك: (... والعام الذي تحولت فيه الإمامة ملكاً كسروياً، والخلافة غصباً قيصرياً) (رسالة النابتة، ج ٢: ١١).

أخذ أيضاً الجاحظ على معاوية صفة المنبر للصلاة، فأوردتها الجاحظ في إشارة إلى ما لا ينبغي على خليفة مثل معاوية أن يقوم بها: (وقد كان في حجج معاوية في اتخاذ المقصورة بعد ضرب البرك إياه بالسيف، أنه أبصر كلباً على منبره) (الحيوان، ج ٢: ٣١٦). ولم ينقص معاوية الدهاء في هكذا موقف، فالكلب كان مما يدل على خوف معاوية من غيلة أخرى بعد البرك قد لا ينجو منها. تعددت خصال معاوية منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم. وأورد

صالح معاوية كما أشار إلى ذلك الجاحظ (رسالة الحكمين: ٣٨٤). ويقول في نفس الموضوع: (مما تهيا له من الأسباب واتفق له من العلل ما كان ظاهراً من رأي سعد وابن عمر في تحريم البسط والأمر بالكف والنهي عن حمل السلاح والإمكان من الحرب؛ فاجتمع له السبب الذي به يوهم موضع دم عثمان) (رسالة الحكمين: ٣٤٧) لما اجتمع الرأي من طلحة والزبير وأم المؤمنين عائشة ومن بمكة من المسلمين على السير إلى البصرة والانتصار من قتلة عثمان - رضي الله عنه - خرج الزبير وطلحة حتى لقي ابن عمر وسعد بن أبي وقاص ودعواهم إلى الخروج، فقال: إني امرؤ من أهل المدينة؛ فإن يجتمعوا على النهوض أنهض، وإن يجتمعوا على القعود أقعد فتركاه ورجعا وهذا ما أستغله معاوية في الكف عن الحرب وعن حمل السلاح (التميمي: ٩١).

تناول الجاحظ حيلة معاوية وأصحابه في رفع المصاحف على رؤوس الرماح ليخدع جند علي ويشق صفوفهم، وقبول علي بالتحكيم تلافياً للشقاق أن يدب في صفوف عسكره، وقد حاول علي أن يستغل هذه الحادثة لإظهار مكر معاوية: (ويحكم إنها خدعة ومكيدة، وإنها بعد دليل على الفشل وعلى انقطاع القوة؛ فانتهزوا هذه الفرصة فقد دلكم بها على موضع العورة، وليس بينكم وبين الظفر إلا صبر ساعة) (رسالة الحكمين: ٣٥١)، بيد أن الجاحظ يرد جميع هذه التهم، لأن علياً أشد الناس قلباً وأكثرهم للأقران قتلاً، ولأنه كان يدرك خدعة معاوية وعمرو، وقد حذر أتباعه في خطبه منها، ودعاهم إلى مواصلة القتال.

يحلل الجاحظ موقف أبي موسى الأشعري، وينتهي إلى نتيجة جديدة، هي أنه انقلب على علي وحاول صرف الخلافة إلى عبد الله بن عمر (قد عرفنا حال أبي موسى عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعند أبي بكر ومنزله من عمر بن الخطاب ومكانه من عثمان بن عفان في كثرة فتوحه وصحة تدييره) (رسالة الحكمين: ٣٥١). إن أبا موسى وعمراً اتفقا على أن يعهدا بأمر خلافة المسلمين إلى الموجودين على قيد الحياة من أعيان الصحابة الذين توفي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو عنهم راضٍ، هذا مع العلم أن عبد الله بن عمر ما كان ليرضى بنكث البيعة، وهذا ما أكده الجاحظ: (وإياه عنى ابن عمر حين قيل له: هلأ بايعت أخاك ابن الزبير؟ فقال: إن أخي وضع يده في عقية ودعا إلى البيعة. إني لا أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقة) (الحيوان، ج ١: ١٥٩)؛ فكان عبد الله بن عمر لا يرى طلبها ولا الدفع عنها، إلا بالكف دون البسط أو بالجدال دون القتال.

أما في ما يخص الإمامة فيرى الجاحظ أن الشورى ليست سبب الإمامة (الدروبي، ٢٠٠٧: ٢٤٥)، وقد عمل بها عمر وليس من الضروري اتباعها. فأبو بكر لم يعمل بها بل أقام عمر قبل وفاته: (فهل خالف ذلك الرأي من عمر أحد؟ ولقد اتفقوا عليه بعد موته كما اتفقوا عليه قبل موته؛ ولقد خالف بعضهم أبا بكر في استخلاف عمر وما خالف أحد عمر في وضع الأمر في السنة، ولم يقل أحد من السنة: فينا واحد لم يكن ينبغي أن يكون معنا، أو: في الناس واحد كان ينبغي أن يكون معنا) (رسالة الحكمين: ٣٩٠). يرى الجاحظ أن بيعة أبي بكر الصديق كانت نعمة أنقذ الله بها المسلمين من

الجاحظ بعضها، ومنها إعانة المحتاجين والفقراء، يقول الجاحظ: (يكتب إلى أطرافه وعماله وإلى زياد في العراق بإطعام السابلة والفقراء وذوي الحاجة، وله في كل يوم أربعون مائدة يتقاسمها وجوه جند الشام) (التاج: ١٥). والملاحظ على الجاحظ في حديثه عن الأمويين وعن معاوية خاصة أنه كان قليل الموضوعية. ودليل ذلك أنه لا يخفي مواقفه المعجبة بسياساتهم ومهاراتهم في الإدارة والحكم وبيلاغتهم.

إن النابغة الذين عادوا في عهد الدولة العباسية رغبة في إحياء الدولة الأموية، أو حنيناً إليها، وجه الجاحظ لهم رسالة أطلق عليها النابغة، وكان مدفوعاً من قبل السلطة العباسية التي كان عليه أن يقوم بواجب الدفاع عنها؛ فكان عليه أن يتناول في رسالته كل ما يتعلق بالدولة الأموية ورموزها ومنهم معاوية، على رغم أنه كما مر بنا، كان يبدي إعجاباً بمعاوية وحلمه ودهائه، لكنه في هذا الرسالة كان مجرباً على تغيير موقفه، وهو دأب الجاحظ في حياته (فوزي، ١٩٧٧: ٢٨).

والجاحظ في رسالة النابغة التي كتبها في بني أمية، تبدلت مواقفه تجاه بني أمية بسبب تغير الظروف السياسية التي تمر بها الخلافة العباسية، عليه: (وقد أربت عليهم نابغة عصرنا ومبتدعة دهرنا؛ فقالت: لا تسبوه فإن له ضحبة؛ وسب معاوية بدعة، ومن يبغضه فقد خالف السنة فزعمت أن من السنة ترك البراءة ممن جحد السنة) (رسالة في النابغة، ج ٢: ١٢).

تلاحقت تهمة الجاحظ لبني أمية، من مثل إيراده مقتطفات من خطبة أبي حمزة الشاري التي قالها في معاوية وبني أمية، وما أوردها الجاحظ إلا رغبة في التنقص منهم، فعادة الجاحظ عندما لا يعجبه حدث أن يسكت عنه، لكن إذا ذكره ولو بلسان غيره فهو مما يوافق عليه ويؤيده (البيان والتبيين، ج ٢: ٨٤). وهذا جل ما أورده الجاحظ عن معاوية وجدناه مبعثراً بين ثنايا كتبه ورسائله.

لقد تناول الجاحظ واقعة كربلاء وعرض أسبابها وخلص إلى أن يزيد يتحمل دم الحسين، من خلال من رواية عبيد الله بن زياد بن أبيه بعد حادثة مقتل الحسين بن علي: (وكيف تقولون في قول عبيد الله بن زياد لإخوته وخاصته: دعوني أقتله فإنه بقية هذا النسب، فأحسم به هذا القرن، وأميت به هذا الداء، وأقطع به هذه المادة) (رسالة النابغة، ج ٢: ١٣). وما كان ليرسل جيشاً من قبله إلا وهو على يقين بما في نفس الخليفة يزيد. عبيد الله بن زياد قتل الحسين في يوم عاشوراء، وقتله الله يوم عاشوراء في السنة الأخرى (رسالة الأوطان والبلدان: ١٠٩).

لم يتناول الجاحظ فتوحات عبد الملك بن مروان وإسهاماته في خدمة الإسلام، لكنه أورد الصراع الذي كان دائراً بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير عندما تناول موقف الروم منه: (لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير، اجتمع وجوه الروم إلى ملكهم فقالوا له: قد أمكنتك الفرصة من العرب، بتشاغل بعضهم مع بعض، لوقوع بأسهم بينهم، فالرأي لك أن تغزوهم إلى بلادهم، فإنك إن فعلت ذلك بهم نلت حاجتك، فلا تدعهم حتى تنقضي الحرب التي بينهم فيجتمعوا عليك، فنهاهم

عن ذلك وخطأ رأيهم، فأبوا عليه إلا أن يغزوا العرب في بلادهم. فلما رأى ذلك منهم أمر بكلبين فحرش بينهما، فاقتتلا قتالا شديداً، ثم دعا بتغلب فخلده، فلما رأى الكلبان التغلب، تركا ما كانا فيه، وأقبلا عليه حتى قتلاه، فقال ملك الروم: كيف ترون؟ هكذا العرب، تقتتل بينها، فإذا رأونا تركوا ذلك واجتمعوا علينا؛ فعفرنا صدقه، ورجعوا عن رأيهم) (الحيوان، ج ٢: ٢٢٣).

يورد الجاحظ العديد من مواقف الحجاج مع أهل العراق خاصة في البيان والتبيين بسبب خطب الحجاج التي كانت مثار إعجاب الجاحظ، من ذلك مثلاً: (خرج الحجاج يوماً من القصر بالكوفة، فسمع تكبيراً في السوق، فراعاه ذلك، فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وصلى على نبيه ثم قال: يا أهل العراق، يا أهل الشقاق والنفاق، ومساوي الأخلاق، وبني اللكيعة، وعبيد العصا، وأولاد الإماء، والفقع بالقرقر، إني سمعت تكبيراً لا يراد به الله وإنما يراد به الشيطان) (البيان، ج ٢: ٩٤) استعمل الحجاج في هذه الخطبة كل تقريع وشتم بعد أن رأى غمز القوم ولمزهم على رسالة عبد الملك بن مروان.

بعد وفاة الوليد توالى الخلفاء الأمويون على الخلافة فتولاها الخليفة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ / ٧١٥م (ابن خياط: ٢٠٩)، ثم الخليفة عمر بن عبد العزيز بن مروان الأول بن الحكم وهو الخليفة الأموي الذي لقب بخامس الخلفاء الراشدين (الطبري، ج ٤: ٥٧).

أشار الجاحظ إلى أن عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة غطى أجزاء من الجامع عن الناس لأنه مناف للإسلام وحتى لا يشغل الناس عن الصلاة (فلما قام عمر بن عبد العزيز، جلله بالجلال، وغطاه بالكرابيس، وطبخ سلاسل القناديل حتى ذهب عنها ذلك التلألؤ والبريق؛ وذهب إلى أن ذلك الصنيع مجانب لسنة الإسلام، وأن ذلك الحسن الرائع والمحسن الدقاق، مذهلة للقلوب، ومشغلة دون الخشوع، وأن الببال لا يكون مجتمعاً وهناك شيء يفرقه ويعترض عليه) (الحيوان، ج ١، ص ٤٣)؛ إذ يعد عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين لما كان عليه من الزهد فعندما كان يكتب للشعب كان يضيء شمعة من بيت المسلمين وعندما كان يكتب أمورا خاصة به كان يضيء شمعة من ماله (ابن الجوزي: ٧٥).

أشار الجاحظ أيضاً إلى عمر بجنبه البيان: (وسمع عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- رجلاً يتكلم فأبلغ في حاجته، فقال عمر: هذا -والله- السحر الحلال) (رسالة صناعة القواد: ٣١٤)، كما أن الخطبة التي أوردها الجاحظ على لسان أبي حمزة الشاري في معاوية وبني أمية أشار فيها إلى أن أبا حمزة عندما بلغ عمر بن عبد العزيز سكت: (فلما انتهى إلى عمر بن عبد العزيز أعرض عنه، ولم يذكره) (البيان، ج ٢: ٩٤). ولم يتناول الجاحظ سيرة عمر بن العزيز إلا بالخير؛ إذ كان عنده مختلفاً عن خلفاء بني أمية. ولعل موقف عمر بن عبد العزيز من أبناء علي بن أبي طالب يتجلى فيما ذكره الجاحظ عند قدوم الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب بن أبي طالب على عمر وكيف أكرم وفادته: (ولما قدم عبد الله بن الحسن بن الحسن رضي الله عنهم، على عمر بن عبد العزيز -رضي الله عنه- في حوائج له، فلما رأى مكانه بالشام، وعرف سنه وسمته

ومعه عبد الرحمن بن رستم، فقال هشام: ما في الأرض نهر خير من الفرات! فقال عبد الرحمن: ما في الأرض نهر شر من الفرات، أوله للمشركين، وآخره للمنافقين) (الحيوان، ج ٤: ١٢٣).

يعطي الجاحظ إيجاعات حول معرفة هشام بما يدور في نفوس حاشيته، من ذلك قوله: (دخل هشام بن عبد الملك حائطاً له فيه فاكهة وأشجار وثمار ومعه أصحابه؛ فجعلوا يأكلون ويدعون بالبركة! فقال هشام: يا غلام! اقلع هذا، واغرس مكانه الزيتون) (البخلاء: ١٧٩).

أما الوليد بن يزيد فعده الجاحظ من المفاخر التي يفتخر بها بنو أمية على بني هاشم، وذلك لما فيه من الصفات؛ إذ كان كما يشير الجاحظ خطيباً وشاعراً (رسالة فضل هاشم: ٤٣٦)، أما عن فخر الأمويين به فقال: (قالت أمية: لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي) (رسالة فضل هاشم: ٤١٩). لكنه كان مهملًا للخلافة طائشًا لا يحسن تصريف الأمور مات مقتولاً (الطبري، ج ٤، ص ٢٣٢) من قبل ابن عمه يزيد الثاني بن الوليد: (قتل يزيد بن الوليد ابن عمه الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان) (البيان، ج ٢: ٩٦).

سقوط الدولة الأموية

اجتمعت عوامل عدة ساهمت في سقوط دولة الأمويين، يرى أبو عثمان الجاحظ أنها تتمثل في مجموعة من الأسباب، من أهمها: إبعاد أبناء الإماء عن السلطة والخلافة وعدم الاستفادة من قدراتهم وإن كانوا أكفأ من غيرهم. فهناك مثلاً مسلمة بن عبد الملك بن مروان الذي لم يكن لعبد الملك ابن أكثر سداد رأي منه، ولا أذكي عقلاً، ولا أشجع قلباً، ولا أسمح نفساً، ولا أسخى كفاً (ابن عبد ربه، ج ٧: ١٤٥)، وله من الصفات الخلقية الكثير، مثل ما ذكره الجاحظ من أنه يكره اللحن: (قال مسلمة بن عبد الملك: إن الرجل ليسألني الحاجة فتستجيب نفسي له بها، فإذا لحن انصرفت نفسي عنها) (رسالة صناعة القواد: ٣١٤) ولكنه استبعد من الخلافة ومن ولاية العهد لأنه كان ابن أمة، ولأن بني أمية كانوا يتطرون من ترشيح أبناء الإماء إلى منصب الخلافة خشية زوال ملكهم على يد ابن أم ولد.

ويرى الجاحظ عاملاً آخر يتمثل في ما قام به مروان بن محمد من تغيير في القيسية ساهم بشكل كبير في سقوط دولة بني مروان: (ألا ترى أن مروان بن محمد لما استبدل قيس عيلان الجند بقبس عيلان الجند، من أبناء قحطان، كيف ظهر انتشار أمره واضطرب حبله واختلقت الكلمة وتقطع النظام وانحلت العقد وأدبر الملك وركدت الرياح) (رسالة في الحكمين: ٣٤٨). وهنا يظهر الجاحظ دور العصبية في خلافة مروان الذي سار سيرة سلفه فتعصب للقيسية؛ فقد أطلت القبلية برأسها في عهده من جديد، واحتدم الصراع بين القبائل المضرية والقبائل اليمانية.

وفي خلافة مروان بن محمد كانت مرحلة التخطيط السري الذي قام به العباسيون ووصل حد النضج؛ إذ تمكنوا من قبض زمام الأمور وتكوين دولتهم في خراسان فواجه مروان دسائس المفسدين

وعقله، ولسانه، وصلاته وصيامه، فلم يكن شيء أحب إليه من ألا يراه أحد من أهل الشام، فقال له: إنني أخاف عليك طواعين الشام (التعالبي، ج ١: ٥٤٦)؛ فإنك لن تغنم أهلك أكثر منك، فالحق بهم؛ فإن حوائجك ستسبقك إليهم) (الحيوان، ج ٤: ٧٣) وكان ظاهر ما يكلمونه به ويرونه إياه جميلاً مذكوراً، وكان معاناهم الكراهة لمقامه بالشام، وكانوا يرون جماله، ويعرفون بيانه وكماله فكان ذلك العمل من أجود التدبير فيه عند نفسه (شارل، ٣٩٩١: ٢٧).

ثم تولى الخلافة بعده يزيد بن عبد الملك الذي أراد أن يسير بالناس سيرة عمر، لكنه فشل بسبب حاشية السوء (الطبري، ج ٤: ٧٢)، حتى انقلب حاله وأصبح مولعاً بالجواري والغناء: (واتخذ يزيد بن عبد الملك حباية وسلامة، وأدخل الرجال عليهم للسمع) (رسالة القيان، ج ٢: ١٥٩). ويأخذ الجاحظ الكثير على يزيد، إذ أشار إليه في كتابه البيان والتبيين، إشارة تدل على ما يجد في نفسه عليه، ومن ذلك ما قال: (ثم ولي يزيد بن عبد الملك الفاسق في دينه، المأبون في فرجه، الذي لم يؤنس منه رشد، وقد قال الله -تعالى- في أموال اليتامى: (فَإِنْ أَنْسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ)، فأمر أمة محمد عليه السلام أعظم. يأكل الحرام ويشرب الخمر، ويلبس الحلة قومت بألف دينار، قد ضربت فيها الأبخار، وهتكت فيها الأستار، وأخذت من غير حلها. حباية عن يمينه، وسلامة عن يساره تغنيانه، حتى إذا أخذ الشراب منه كل مأخذ قد ثوبه، ثم التفت إلى أحدهما فقال: ألا أظير إلا أظير! نعم فطر إلى لعنة الله وحرقيق ناره، وأليم عذابه) (البيان، ج ٢: ٨٥) والعبارة الأخيرة من الرواية أضافها الجاحظ لما يجد في نفسه على يزيد وأعماله إبان خلافته.

كما تظهر هذه الرواية في موضع آخر عندما يتناول الجاحظ فيها أعمال يزيد بن عبد الملك: (وكان يسمع فإذا طرب شق بؤده ثم يقول: أظير! فتقول حباية: لا تطير؛ فإن بنا إليك حاجة) (رسالة القيان، ج ٢: ١٥٩). وهذا التفصيل في حالة يزيد قلما نجد له مثيلاً، حتى ليعطي القارئ صورة ذهنية عن حالة يزيد في خلافته.

كما وصفه بأنه محب لاقتناء البغال والتباهي بها: (كان هشام بن عبد الملك يوماً على باب يزيد بن عبد الملك ينظر إلى بغال تعرض، فنظر إلى بغل منها لم ير الناس مثله في تمام خلق، وطهارة خلق، ولين سيرة، وحسن صورة، فقال: ما يصنع أمير المؤمنين بهذه الدواب كلها؟ لو أن رجلاً اجتزأ بهذا البغل وحده، لكان مكتفياً) (البغال، ج ٢: ٢٤٣).

ثم تولى الخلافة هشام عبد الملك الذي اهتم بترسيخ الأمن في الولايات الإسلامية كافة (الطبري، ج ٤: ١١١)، وازدهرت في عصره الحضارة الإسلامية ووصلت إلى مستوى من التقدم في المجالات كلها (الطبري، ج ٤: ١١١)، واشتهر عهده بازدياد الاهتمام بالعلماء وتم إنشاء المزيد من دور العلم والمدارس التخصصية ودور العبادة كما ازدهرت فنون العمارة الأموية الإسلامية المميزة للعهد الأموي الذي تميز ببناء القصور والحصون التي انتشرت في دمشق والشام وأرجاء البلاد الإسلامية. وعلى رغم أن هشام كان إدارياً مقتدرًا لا يذكر الجاحظ عنه شيئاً إلا النزر اليسير، من ذلك: عندما وقف هشام على نهر الفرات قال: (ووقف هشام بن عبد الملك على الفرات،

يقوم به خلفاء بني العباس، لم تكن بأحسن من دولة بني أمية، بل قد تكون أسوأ، لكنه يمر عليه كعادته في كتاباته؛ إذ إنه كاتب يمثل الخلافة والسلطة (الدروبي، ٢٠٠٨: ٤٣).

أما الأسباب التي دعت الجاحظ إلى اتخاذ هذا الموقف من بني أمية فقد عددها على النحو التالي: (إطعام عمرو بن العاص خراج مصر) (رسالة النابتة، ج٢: ١١)؛ إذ أن خراج مصر في ذلك الوقت كان يبلغ وحده ضعف خراج بلاد الروم إذا جمعت أبواب المال من البلاد جميعاً. ويشير الجاحظ إلى خراجها الضخم الذي يدل على خصبها والبالغ أربعة آلاف دينار (رسالة الأوطان: ١١٥)؛ إذ لجأ معاوية إلى ترغيب عمرو بن العاص بمصر، وإن كانت بعض المصادر ترى أن عمرو بن العاص طلب ولاية مصر من معاوية حتى يقف إلى صفه في حربه مع علي (اليقوبي: ٢٨٣. الطبري، ج٣: ١٢٨).

يظهر الجاحظ مدى حرص عمرو بن العاص على ولاية مصر بقوله: (فلما صارت مصر في يدك تتبعك فيها بالعزل والتنقص، حتى لو أن نفسك فيها ألقيتها إليه) (البيان، ج٢: ٢٠٦). لقد فتح عمرو بن العاص مصر في السنة العشرين من الهجرة (الستمة والأربعين للميلاد)، وظل والياً عليها حتى وفاة عمر بن الخطاب؛ إذ عزله عنها الخليفة عثمان بن عفان (ابن خياط: ١٤٢، ١٤٣، ١٥٦)؛ لذا ففي تصوير الجاحظ لنا أن رغبة عمرو في تولي مصر إنما كانت لمعرفته بأحوالها ومقدار خراجها وما بها من الخير، وأنه طلب من معاوية (الاستتار بالفيء) (رسالة النابتة، ج٢: ١٤)، ولم يكن معاوية كما يقول الجاحظ يدقق في اختيار الولاة إلا حسب ما تتحقق مصلحته في الخلافة، فتعيين الولاة يتم حسب الهوى (رسالة النابتة، ج٢: ١٧).

كذلك تعطيل الحدود: (وتعطيل الحدود بالشفاعة والقراية من جنس جحد الأحكام المنصوصة، والشرائع المشهورة، والسُنن المنصوبة) (رسالة النابتة، ج٢: ١٩). وجحد الكتاب ورد السنة النبوية؛ إذ كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره إلا أن أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشد، فهذه أول كفره كانت من الأمة: (جحد الكتاب ورد السنة؛ إذ كانت السنة في شهرة الكتاب وظهوره، إلا أن أحدهما أعظم، وعقاب الآخرة عليه أشد) (رسالة النابتة، ج٢: ٢٦).

كما يأخذ الجاحظ على بني أمية القيام بكل ما يمكن من أجل تثبيت ملكهم وفي سبيل ذلك قاموا: (فاحسب أن تحويل القبلة كان غلطاً، وهدم البيت كان تأويلاً، واحسب ما روي من كل وجه أنهم كانوا يزعمون أن خليفة المرء في أهله أرفع عنده من رسوله إليهم، باطلاً ومصنوعاً مولداً) (رسالة النابتة، ج٢: ١٦). وتفسير ما يشير إليه الجاحظ أشار له اليقوبي بقوله إن عبد الملك بن مروان عندما تولى الخلافة أراد أن يلفت أنظار الناس ويبعدهم عن مكة المكرمة حيث عبد الله بن الزبير؛ فأمر ببناء قبة الصخرة المشرفة لتكون بديلاً عن مكة المكرمة في الحج. ولا يعقل ابتداء أن يقوم عبد الملك الذي عرفت عنه حكمته، بمحاولة تحويل قبلة المسلمين وحجهم إلى مكان غير مكة المكرمة. ثم إن عمل عبد الملك بن مروان لم تكن القدس أكبر اهتماماً منه بمكة والمدينة، فبعد أن ضم الحجاز قام فوراً بأداء فريضة الحج إجلالاً لمكة، وكذلك فإن

والخارجين على دولة بني أمية إلى أن انتهى به الأمر مقتولاً في ديار مصر بعد هروبه من جنود العباسيين (الطبري، ج٤: ٣٥٦)، قتله صالح بن علي الذي ذكره الجاحظ في معرض حديثه عن ادعاء بني أمية البسالة: (صالح بن علي وهو الذي تبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قتله) (رسالة فضل هاشم: ٤٥٠)؛ إذ إن العباسيين استمروا في تتبع مروان حتى دخل مصر: (زالت دولة بني أمية ودخلت المسودة إلى مصر في طلب مروان بن محمد الجعدي، في سنة ثلاث وثلاثين ومائة) (المقريزي، ج٢: ٤٧٨)، وبه انتهى عصر الخلافة الأموية في المشرق سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م والذي دام أكثر من ٩٠ سنة (سير اعلام النبلاء، ج٥: ٣٧٤).

ويشير الجاحظ في رواية إلى أن مروان عندما أحيط به في مصر كان يحمل برداً وقضبياً للرسول صلى الله عليه وسلم، فدفع بهما إلى خادمه وأمره أن يدفنهما في تلك الرمال (البيان، ج٣: ٤٧)، وهي البردة التي لبسها الخلفاء العباسيين.

موجز رأي الجاحظ في الأمويين وحكمهم

تبدلت مواقف الجاحظ السياسية نتيجة لتغير الظروف والأحوال التي عاشها؛ إذ عاصر ما يقرب من أحد عشر من الخلفاء العباسيين، كل خليفة له سياسته تجاه بني أمية، وبما أنه كان مقرباً من بيت الخلافة كان عليه في الغالب أن يكون ولاؤه مع ولاء الخليفة العباسي (حمزة، ١٩٨٢: ٢٤)؛ فنتج عن ذلك تبدل مواقف الجاحظ السياسية: فنجد في رسالة النابتة يصف خلافة وخلفاء بني أمية بالفسق والكفر: (وقد كانت هذه الأمة لا تتجاوز معاصيها الإثم والضلال، إلا ما حكيت لك عن بني أمية وبني مزوان وعمالها، ومن لم يدن بإكفارهم، حتى نجت النوابت، وتابعتها هذه العوام، فصار الغالب على هذا القزن الكفر، وهو التشبيه والجبر، فصار كفرهم أعظم من كفر من مضى في الأعمال التي هي الفسق، وصاروا شركاء من كفر منهم، بتوليهم وترك إكفارهم) (رسالة النابتة، ج٢: ١١). إن تهمة الشيعة بالتشبيه والتجسيم كانت موجودة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، أي منذ أن راج التشبيه والتجسيم وطفح كيله فمجه الناس، فاتهمت به السلطة معارضيه (ذيل الطبقات: ١١١).

يصف الجاحظ تحول الخلافة من شورى في عهد الخلفاء الراشدين إلى ملك عضوض في عهد بني أمية بقوله: (استوى معاوية على الملك، واستبد على بقية الشورى، وعلى جماعة المسلمين من الأنصار والمهاجرين، في العام الذي سموه عام الجماعة، وما كان عام جماعة بل عام فرقة وقهر، وجبرية وغلبة... ولم يعد ذلك أجمع الضلال والفسق، ثم ما زالت معاصيه من جنس ما حكينا) (رسالة النابتة، ج٢: ١١). عندما اجتمعت كلمة المسلمين على خليفة واحد هو معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١هـ / ٦٦١م (ابن خياط: ٢٠٣)، بعد مقتل علي بن أبي طالب، أطلقوا عليه عام الجماعة لأن معاوية نال بيعة جميع الأمصار واجتمع الناس على خليفة واحد (ابن خياط، ص٣٢١-السيوطي: ١٩٢)، هذا على الرغم من معارضة الجاحظ لهذه التسمية، ولم يكن تنقصه البديهة وهو يصف حال دولة بني أمية؛ فحال دولة بني العباس في توريث الخلافة وفي ما

الطوامير الكثيرة به، ... وإن شئت أن تذكر مواليتهم وكتابتهم فاذا ذكر عيسى بن ماهان، وابنه عليا، وخالد بن برمك وابنه يحيى، وابنيه جعفرًا والفضل، وكتابتهم منصور بن زيد، ومحمد بن منصور فتى العسكر، فإنك تجد لكل واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس) (رسالة فضل هاشم: ٤٣٢) حتى إن أكد الجاحظ وقوفه في روايته على الحياد يعكس ما أورده من دلائل عدم صحة ذلك، حتى المقارنة نفسها لم يقيم بها الجاحظ بين رجال بني أمية ورجال بني العباس، بل حتى مع نساء بني العباس وذلك حتى يقلل من شأن بني أمية. ومعلوم ما لخلفاء بني أمية من الفتوحات، وما خصهم الله - عز وجل - ويسره على أيديهم من نشر الإسلام، وفيه انتشر العلم والفقه، ودون الحديث، ودون التفسير، وعم الرخاء في العالم الإسلامي، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان كثير من عماله في البلدان من بني أمية، وكذا عمال أبي بكر وعمال عمر وعثمان وماتوا وهم عنهم راضون.

أما موقف الجاحظ الحياضي - ولو أكد - يغلب عليه هو: (ولسنا ممن يميل في شق عن شق ويتعصب لبعض على بعض ومن يبغض حقّ الدون، فكأنك به قد تبغض حق من فوجه حتى تصير إلى أئمتهم المهتدين وخلفائهم الراشدين؛ لست عمريا دون أن أكون علويًا، ولا علويًا دون أن أكون عثمانيا، اللهم إلا بما أخص به العترة بسبب القرابة، وأما في غير ذلك فليس شأنني إلا محبة الجميع والتوفير على الكل ودفع الظلامة عن الكبير والضعيف على قدر ما شاهدنا عليه من الحالات) (رسالة الحكمين: ٣٦٩) إن ميل الجاحظ نحو الدولة العباسية واضح وإن حاول الدفاع عن ذلك، فتقليد كتبه ورسائله كفيلا يكشف ذلك.

كما نجد أن الجاحظ يحمل حتى على الكتاب المخضرمين الذين كتبوا لبني أمية وعاشوا في دولة بني العباس، ويرميهم بالشوم: (فهذا عبد الحميد الكاتب الذي كتب لبني أمية فانتقضت خراسان عليهم وزال ملكهم...) (رسالة ذم أخلاق الكتاب: ٣١٧).

أورد الجاحظ في كتاب البيان والتبيين بعض الخطب التي تتناول بني أمية، على رغم أنه سوغ موقفه من أنها خطب متداولة، لكن عملية انتقائها تدل على فحوى ما يرمي إليه الجاحظ، من ذلك خطبة أبي حمزة الشاري: (وأما بنو أمية ففرقة الضلالة، بطشهم بطش جبرية، يأخذون بالظنة، ويقضون بالهوى، ويقتلون على الغضب، ويحكمون بالشفاعة، ويأخذون الفريضة من غير موضعها، يضعونها في غير أهلها، وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف، فقال: إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَةَ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ. فأقبل صنف تاسع ليس منها فأخذها كلها. تكلم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله) (البيان والتبيين، ج ٢: ٨٥) حتى يؤكد أن خلافة بني أمية لم تسر على المنهج الإسلامي القويم، وحتى يعلمنا أن الثورات التي قامت على دولة بني أمية كانت بسبب ضلالها وبعدها عن منهج الله. كما أن مناسبة الخطبة واضحة وهي مواجهة الإمامة الإباضية الأولى التي يقودها أبو حمزة الشاري جيوش مروان وإلقاء هذه الخطبة في المدينة المنورة على الناس، فكان أبو حمزة طبيعياً أن يتناول الدولة الأموية وهو في حالة مواجهة وحرب معها.

عبد الملك بن مروان أمر بالبدء في تعمير الكعبة المشرفة (الطبري، ج ٣: ٥٧٦).

يعد الجاحظ من خلال رؤيته أعمال بني أمية الجائرة على الإسلام والمسلمين، من ذلك قوله: (حتى قام عبد الملك بن مروان، وابنه الوليد، وعاملهما الحجاج بن يوسف، ومولاه يزيد بن أبي مسلم، فأعادوا على البيت بالهدم، وعلى حرم المدينة بالغرؤ، فهدموا الكعبة، واستباحوا الحزمة، وحولوا قبلة واسط، وأخزوا صلاة الجمعة إلى مغربان الشمس) (رسالة النابتة، ج ٢: ١٦)، يشير الجاحظ إلى ما قام به الحجاج بن يوسف الثقفي بأمر من عبد الملك بن مروان، بضرب الكعبة المشرفة بالمنجنيق بعد محاصرة مكة متعمداً، لقتل عبدالله بن الزبير بعد رفضه البيعة للخليفة. ونلاحظ أن الجاحظ يركز على موضوع هدم البيت في أكثر من رواية سالفة الذكر حتى يستثير عواطف الناس ويؤلب قلوبهم على بني أمية. وواسط المدينة التي بناها الحجاج بين الكوفة والبصرة حتى يخف عليه التنقل بين المدينتين (اليقوبي، تاريخ: ٣٣٧). أما تأخير الصلاة والجمع بينها فهذا ما أحدثه الحجاج يقول الذهبي: (خرج القراء وهم أهل القرآن والصلاح بالعراق على الحجاج لظلمه وتأخير الصلاة والجمع في الحضر) (سير أعلام النبلاء، ج ٤: ٣٠٦). يورد الجاحظ رواية يعرض من خلالها عدم أحقية بني أمية بهذه الصفة بقوله: (إن نطق مسلم خبط بالسيف، وأخذته العمد، وشك بالرمح. وإن قال قائل: اتق الله أخذته العزة بالإثم، ثم لم يرض إلا بنثر دماغه على صدره، وبصلبه حيث تراه عياله) (رسالة النابتة، ج ٢: ١٧). الجاحظ بروايته يشير إلى أن القوم لم يكونوا إلا في طريق التمرد على الله والاستخفاف بالدين والتهاون بالمسلمين والابتذال لأهل الحق.

أما فيما يخص علاقة بني أمية ببني هشام فيعدد الجاحظ جورهم على بني هاشم، ابتداء من محاربة علي، إلى سم الحسن، وقتل الحسين، وسم أبي هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب، وضرب الكعبة وتغيير موعد الصلاة: (فاحسبوا قتله ليس بكفر، وإباحة المدينة وهتك الحرمات ليس بحجة، كيف تقولون في رمي الكعبة، وهدم البيت الحرام، وقبلة المسلمين؟) (رسالة النابتة، ج ٢: ١٧) كما كررها في رسالة النابتة (رسالة النابتة، ج ٢: ٩)، (وبسبب ما ارتكب بنو أمية من مخاز وفجور دالت دولتهم بسرعة، وانتزع العباسيون الملك من أيديهم بالبطش والحيلة) (رسالة فضل هاشم على عبد شمس: ٤١١)، يريد الجاحظ أن يفهم القارئ أن زوال دولة بني أمية كانت بسبب بطشهم وتجبرهم على الناس. ونشير هنا إلى أن ميل الجاحظ السياسي نحو العباسيين عمل على التقليل من شأن بني أمية، حتى في الصفات التي عرفت عنهم (مجموعة مؤلفين، ٢٠٠٢: ٢٨٤)، وهنا ورط الجاحظ نفسه عندما صغر على بني أمية صفاتهم وبخاصة صفة الكرم التي يقول فيها: (وإن أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أمية في العطاء افتضح بنو أمية وناصرهم فضيحة ظاهرة؛ فإن نساء خلفاء بني العباس أكثر معروفاً من رجال بني أمية، ولو ذكرت معروف أم جعفر وحدها لأتى ذلك على جميع صنائع بني مروان، وذلك معروف. ولو ذكرت معروف الخيزران وسلسبيل لملاّت

البصرة كان أول من عارض في التحكيم لما سمع بذكر الحكيمين - بين علي ومعاوية - فقال: لا حكم إلا لله، وخرج على الفريقين. ثم كان أحد الثلاثة الذين اتفقوا على قتل علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص في يوم واحد. وضمن قتل معاوية، فذهب وكمن له، حتى خرج يريد الصلاة، فضربه، فأصاب إتيته ولم يقتله، فقبض عليه معاوية وقتله. أنظر: البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٩٠. الطبري، تاريخ، ج ٣، ص ١٥٦.

٤- أي: يُضْرَبُونَ بها. وقوله: (عبيد العصا) يريد أنهم لا ينفقون إلا بالإذلال، ابن منظور، لسان العرب، ج ١٥، ص ٦٦.
٥- غطاه. ومنها قول الشاعر: كيف يرجون سقاطي، بعد ما ... جلل الرأس مشيب وصلح. ابن منظور، لسان العرب، ج ٧، ص ٣١٨.
٦- لم تزل الشام كثيرة الطواعين حتى صارت تواريخ، وكانت تظهر بالشام ثم تمتد إلى العراق، وأول طاعون وقع في الشام في الإسلام طاعون عمواس في زمن عمر بن الخطاب، وفيه مات معاذ بن جبل وأبو عبيدة بن الجراح، رضى الله عنهما! الثعالبي، ثمار القلوب، ج ١، ص ٥٤٦.

المصادر

ابن الأثير، عز الدين، (١٩٨٢)، الكامل في التاريخ، دار صادر، بيروت.
التميمي، سيف، (١٩٩٣)، الفتنة ووقعة الجمل، دار النفائس، بيروت.
الثعالبي، أبو منصور، (١٩٦٥)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، دار المعارف، القاهرة.
الجاحظ، أبو عثمان، (٢٠١٠)، الحيوان، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
الجاحظ، أبو عثمان، (١٩٩٣)، البخل، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
الجاحظ، أبو عثمان، (١٩٩٧)، البغال، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
الجاحظ، أبو عثمان، (١٩٥٥)، التاج في أخلاق الملوك، دار الفكر، بيروت.
الجاحظ، أبو عثمان، (١٩٩٢)، البيان والتبيين، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

الجاحظ، أبو عثمان، (٢٠٠٤)، الرسائل الأدبية: رسالة كتمان السر وحفظ اللسان، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

الجاحظ، أبو عثمان، (٢٠٠٤)، الرسائل السياسية: كتاب الأوطان والبلدان - رسالة في صناعة القواد، العثمانية - رسالة الحكيمين - رسالة فضل هاشم على عبد شمس - رسالة العباسية، رسالة فخر السودان على البيضان - كتاب ذم أخلاق الكتاب، دار ومكتبة الهلال، بيروت.

أشار الجاحظ إلى أن دولة بني أمية لم تدم سوى أربع وتسعين سنة (رسالة فضل هاشم: ٤٠)؛ إذ إنهم أتوا من الشرور والآثام والظلم الشيء الكثير. لقد حملوا النساء على الجمال حواسر وكشفوا عن عورة علي بن الحسين وضربوا علي بن عبد الله بن عباس بالسياط الخ. وهدموا الكعبة وحولوها وغيروا أوقات الصلاة (رسالة فضل هاشم: ٤١).

الخاتمة والتوصيات

تباينت مواقف الجاحظ في كتاباته عن بني أمية وأسباب ذلك ترجع إلى أن الجاحظ تجاوز عمره التسعين سنة، قام خلالها بتأليف عشرات الكتب والرسائل، فكان في بعض الأحيان قريباً من الخلافة العباسية يتكلم باسمها فيكون موقفه عدائياً من الدولة الأموية، وفي بعض الأحيان يكتب لنفسه أو لأحد أصدقائه ويرى أنه يكن الود للدولة الأموية فلا يتناولها بما يسوؤها أي إن موقف الجاحظ يتبدل حسب الظروف. لكن على الرغم من كل ذلك كان يحاول قدر المستطاع أن يكون حيادياً في كتاباته.

كما أظهرت الدراسة أن موقف الجاحظ السياسي والديني من الدولة الأموية شيء جديد بالنسبة لن تقدمه، فهو في صراعه ضد ميوله الفكرية والسياسية والدينية كان مجبراً على التوفيق بينها، وهو في موقفه الثقافي الحضاري يحاول أن يرى من الزاوية العقلية - إن استطاع - ذلك التفاوت في التباين السياسي بين الدولة الأموية والعباسية التي هو أحد عناصرها. لقد كان نقد الجاحظ للدولة الأموية مكملاً لنشاطه الفكري عامة، أي كان جزءاً صغيراً في مبنى كبير متعدد الجنبات والزوايا، ولهذا جاء أكثر آرائه النقدية نتفاً لا إشباع فيها.

توصي هذه الدراسة بإعادة الاهتمام بكتب الأدب، لأنها تحتوي على مكونات من الروايات التاريخية التي قد لا يلتفت إليها الباحث في المجال التاريخي، كما توصي بأهمية مراجعة كتابات المؤرخين والمقارنة بينها وبين كتب الأدب للوصول إلى صورة أقرب ما تكون للحقيقة.

وما هذه الدراسة إلا محاولة بسيطة لإبراز عالم وأديب من ألع أدباء الحضارة الإسلامية، وعسى أن يكون هذا البحث فاتحة لدراسات وأبحاث قادمة تتناول هذا الأديب وغيره من الأدباء الذين لم يسלט عليهم الضوء حتى الآن. والله من وراء القصد والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الهوامش

١- تنازل الحسن عن الخلافة مجبراً بعد تفرق أنصاره عنه، فراسل معاوية بأن يتنازل له عن الخلافة على شروط قبلها معاوية ثم لم يف بها. ابن الأثير، الكامل، ج ٢، ص ١٠٧.

٢- كتاب القضية هو نص الاتفاق على التحكيم بين علي ومعاوية. أثبت الجاحظ النص وحلله فوجده مزوراً لفظاً ومعنى أو شكلاً ومضموناً. وقد أحسن الجاحظ التحليل والنقد، راجع رسالة الحكيمين، ص ٣٣٩.

٣- البرك بن عبد الله التميمي (٤٠ هـ / ٦٦٠ م) من تميم، من أهل

- حمزة، يوسف، (١٩٨٢)، التعمية الأسلوبية في كتاب الحيوان للجاحظ، مجلة البعث، العدد ٨٢، ص ٤٢
- حمودة، عبد الوهاب، (١٩٩٥)، أسلوب الجاحظ. مجلة نور الأدب، العدد السادس، ص ٦٣
- الدروبي. محمّد، (٢٠٠٧)، التّهم الموجهة إلى الجاحظ، مجلة عالم الفكر، المجلد ٥٣، ص ٥٤٢
- الدروبي. محمّد، (٢٠٠٨)، موقف الجاحظ من الثقافات الأجنبية، مجلة عالم الفكر، المجلد ٧٣، ص ٣٤
- الصرايرة، سليمان، (٢٠١٠)، التكوين الثقافي لعبد الملك بن مروان وولديه الوليد وسليمان، مؤتة للبحوث والدراسات، مجلد ٥٢، العدد ٥، ص ٨٨
- فوزي، فاروق، (١٩٨٠)، الجاحظ مؤرخاً، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، العدد ٩٢، ص ٩١٤
- فوزي، فاروق، (١٩٧٧)، طبيعة الحركة الشعبية، مجلة أفاق عربية، العدد ٦، ص ٨٢
- مجموعة مؤلفين، (٢٠٠٢)، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد ٧، ص ٤٨٢
- هياجنة، إيمان، (١٩٩١)، الجاحظ مؤرخاً، رسالة ماجستير في الآداب، الجامعة الأردنية. الأردن.
- الجاحظ، أبو عثمان، (٢٠٠٤)، الرسائل الكلامية: كتاب القيان - كتاب استحقاق الإمامة - كتاب النابتة، دار ومكتبة الهلال، بيروت.
- ابن الجوزي، أبو الفرج، (١٩٨٨)، مناقب الإمام أحمد، دار هجر، الرياض.
- ابن خياط، أبي عمر، (١٩٩٥)، تاريخ خليفه بن خياط، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الذهبي، شمس الدين، (٢٠١٠)، تاريخ الإسلام، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- الذهبي، شمس الدين، (١٩٨٥)، سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، القاهرة.
- ابن رجب، عبد الرحمن، (١٩٢٥)، ذيل طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت.
- ابن عبد ربه، أحمد، (١٩٨٣)، العقد الفريد، المكتبة العصرية، بيروت.
- السيوطي، عبد الرحمن، (٢٠٠٣)، تاريخ الخلفاء، بيروت، دار الجيل.
- الطبري، أبو جعفر، (٢٠٠٣)، تاريخ الطبري، دار صادر، بيروت.
- العسكري، أبو هلال، (١٩٨٧)، الأوائل، المنصورة، دار البشير.
- المقريزي، أحمد، (١٩٩٧)، المواعظ والاعتبار، دار الكتب العلمية، بيروت.
- ابن منظور، جمال، (١٩٩٧)، لسان العرب، دار صادر، بيروت.
- اليقوبي، أحمد، (١٩٦٩)، تاريخ اليقوبي، دار صادر، بيروت.
- المراجع
بلا، شارل، (١٩٨٥)، الجاحظ في البصرة وبغداد وسامراء، دار الفكر، دمشق.
- النجم، وديعة، (١٩٦٥)، الجاحظ والحاضرة العباسية، مطبعة الإرشاد، بغداد.
- بلا، شارل، (١٩٩٣)، محاولة كشف نتاج الجاحظ، مجلة أريكا، العدد: ٣، ص ٧٢